حسم الصلح ما اشتهته الأعادي

جرت وحشة بين الأستاذ كافور والأمير أبي القاسم مدة ثم اصطلحا فقال: [الخفيف]

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا ٱشْتَهَتْهُ الأَعَادِي
وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الْحُسَّادِ(١)
وَأَرَادَتْهُ أَنْفُسٌ حَالَ تَدْبِيرُ
كَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُرَادِ(٢)
صَارَ مَا أَوْضَعَ الْمُخِبُّونَ فِيهِ
مِنْ عِتَابٍ زِيَادَةً فِي الْوِدَادِ(٣)
وَكَلَامُ الْوُشَاةِ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَحْـ
ـبَابِ سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلأَضْدَادِ(٤)
إِنَّمَا تُنْجِحُ الْمَقَالَةُ فِي الْمَرْ
ءِ إِذَا صَادَفَتْ هَوًى فِي الْفُؤَادِ(٥)
وَلَعَمْرِي لَقَدْ هُزِزْتَ بِمَا قِيـ
ـلَ فَأُلْفِيتَ أَوْثَقَ ٱلأَطْوَادِ(٦)

---

(١) و (٢) الصلح سيد الأحكام، بعد غسل القلوب من الضغائن والتصافي والتلاقي على الودّ، ووأد الفتنة وقمع الشرّ وإكبات ألسن السوء وقد راحوا يلوكون ويذيعون أكاذيب ليُشعلوا فتنة بين كافور والأمير أبي القاسم، ولقد كانت لردة الفعل من قبل كافور السريعة سحرها أن تدارك الأمر وتصرّف بحكمة أخمدت نار فتنة كادت أن تقضي على الكلّ.

(٣) و (٤) أوضع الراكب راحلته: حملها على الإسراع في سيرها. المخبّون: هم من يحمل مطاياهم على الخبب، وهو ضرب من السير السريع. لقد انقلب السحر على الساحر؛ فبدل اشتعال الفتنة بين الأمير وكافور إذ بألسنة السوء تجمع بينهما سريعاً ممّا سهّل القضاء على من كان سبباً في إثارة الخلاف.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. المرء تبع لهواه، فإن سمع ما يسرّه فرح وأذاع به، وإن لم يكن كذلك لم يهتمّ للأمر أصلاً؛ وفي هذا القول دفع التهمة عن الأمير أبي القاسم ممّا تناولته الوشاة من أكاذيب.

(٦) ألفيت: وجدت. الأطواد، الواحد طود: الجبال الشاهقة يُخاطب الشاعر كافوراً أن =

وَأَشَـــارَتْ بِـــمَـــا أَبَـــيْـــتَ رِجَـــالٌ
كُـنْـتَ أَهْـدَى مِـنْـهَـا إلـى الإرْشَـادِ[١]
قَـدْ يُـصِـيـبُ الْـفَـتَـى الـمُـشِـيـرُ وَلَـمْ يَـجْـ
ـهَـدْ وَيُـشْـوِي الـصَّـوَابَ بَـعْـدَ اجْـتِـهَـادِ[٢]
نِـلْـتَ مَـا لا يُـنَـالُ بـالْـبِـيـضِ وَالـسُّـمْـ
ـرِ وَصُـنْـتَ الأرْوَاحَ فـي الأجْـسَـادِ[٣]
وَقَـنَـا الْـخَـطِّ فـي مَـرَاكِـزِهَـا حَـوْ
لَـكَ وَالـمُـرْهَـفـاتُ فـي الأغْـمَـادِ[٤]
مَـا دَرَوْا إذْ رَأَوْا فُـؤَادَكَ فـيـهِـمْ
سَـاكِـنـاً أنَّ رَأْيَـهُ فـي الـطِّـرَادِ[٥]

= سماع الإشاعات لم تُثره بحيث يغضب فيظلم من وُشي به دون التأكد من براءته، فكان كالجبل الشامخ الذي لا يهزه ريح مهما عنُف ذلك أن من نمّ يريد الفساد بين طرفي المشكلة.

(١) لم يتقبّل كافور قول هؤلاء الوشاة وإنما كان على وعي كبير بحيث أعمل عقله ومال إلى المصالحة في صبر وأناة، ممّا أكد أنه متفتّح العقل ولم يقبل بنصحهم، فقام بما هو أوجب وأصلح ودلّ على أنه أرشد منهم.

(٢) يشوي: يُخطئ. يُبدي الشاعر النصح بوعي المجرّب للأمور؛ فقد يُصيب المشير برأي لم يُخلص مشورته ولم يجتهد، وقد يُخطئ من اجتهد برأيه رغم إخلاصه. لم يستمع كافور لمن أشاروا عليه بالاقتصاص، بل بادر إلى الصفح والمسالمة فأصاب كبد الحقّ والفلاح، فكان رأيه رشيداً يدلّ على حسن التدبير وذكاء التصرّف.

(٣) البيض: السيوف. السمر: الرماح الصلبة. لقد أفلح كافور وحصل على مبتغاه دون إراقة الدماء وصان أرواحاً بريئة، فكان بين الأمير وبين كافور صلح على إثره سلّم الأمير الوشاة والساعين إلى إثارة الفتنة فقتلهم كافور.

(٤) القنا: الرماح. والخطّ: موضع تثقّف فيه الرماح، فتنسب إليه. المرهفات: السيوف المحدّدة. يُخاطب الشاعر كافوراً أنه قد أفلحت سياسته دون استعمال السلاح، فقد بقيت الرماح مركوزة في أمكنتها لم تستعمل وكذلك السيوف لم تُغادر أغمدتها.

(٥) لقد جرى كلّ شيء بهدوء دون إثارة القلاقل وارتفاع الضجيج بحيث لم يسمع أحد =

فَـفَـدَى رَأْيَـكَ الَّـذِي لَـمْ تُـفَـدْهُ
كُـلُّ رَأْيٍ مُـعَـلَّـمٍ مُـسْـتَـفَـادِ[١]
وَإِذَا ٱلْـحِـلْـمُ لَـمْ يَـكُـنْ فِـي طِـبَـاعٍ
لَـمْ يُـحَـلِّـمْ تَـقَـادُمُ الْـمِـيـلَادِ[٢]
فَـبِـهَـذَا وَمِـثْـلِـهِ سُـدْتَ يَـا كَـا
فُـورُ وَاقْـتَـدْتَ كُـلَّ صَـعْـبِ الْـقِـيَـادِ[٣]
وأَطَـاعَ الّـذِي أَطَـاعَـكَ وَالـطَّـا
عَـةُ لَـيْـسَـتْ خَـلَائِـقَ الآسَـادِ[٤]
إِنَّـمَـا أَنْـتَ وَالِـدٌ وَالْأَبُ الْـقَـا
طِـعُ أَحْـنَـى مِـنْ وَاصِـلِ الأَوْلَادِ[٥]

= من العامة ما يدور، فلا يبدو على كافور أمارات الضيق والانزعاج فقد أعمل عقله وأفلح بتحقيق رغبته.

(١) يدعو الشاعر لكافور أن يُصان رأيه الذي لم يستشر فيه أحداً وإنّما توصّل إليه بثاقب رأيه وحِكمته وعدم تسرّعه في الحكم فحالفه التوفيق.

(٢) و (٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. الحلم: حسن التصرّف. الحلم ملكة في النفس مغروزة في عقول الأقوياء الذين يملكون نفوسهم عند الغضب منذ طفولتهم، والطيش لا يستكين في النفوس مهما امتدّ بالمرء العمر إذا نشأ وهذه العاهة متمكّنة في نفسه ومتأصلة في طباعه. ولقد حالف التوفيق كافوراً لسداد رأيه وحسن تصرّفه دون التسرّع في الأحكام والتهوّر في التصرّف، فانقادت له الدنيا مطواعة بخلاف غيره ممن لم يملكوا نفوسهم عند الغضب، بل انقادوا فكانوا وقوداً لثورات غضبهم.

(٤) وبمثل رجاحة عقل كافور أمكنه تطويع النفور من الآساد، فإذا بهم طوع أمره يأتمرون به.

(٥) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٢١٦. يُثير الشاعر في كافور إحساساً إنسانياً رفيع النبل، لقد ربى ورعى ابن الأخشيد فكان له بمثابة الأب النصوح الشفوق ورعاه يوم كان بحاجة لمن يُعوّضه حنان الأب في طفولته، ومن الجائز أن يكون الأب دماً ونسباً يفتقد إلى الرحمة والرأفة بولده.

لَا عَـدَا الـشَّـرُّ مَـنْ بَـغَـى لَـكُـمـا الـشَّـرَّ
وَخَـصَّ الْـفَـسَـادُ أَهْـلَ الْـفَـسَـادِ[١]
أَنْـتُـمَـا مَـا اتَّـفَـقْـتُـمَـا الْـجِـسْـمُ وَالـرُّو
حُ فَـلَا ٱحْـتَـجْـتُـمَـا إلـى الْـعُـوَّادِ[٢]
وَإِذَا كَـانَ فـي الأَنَـابِـيـبِ خُـلْـفٌ
وَقَـعَ الـطَّـيْـشُ فـي صُـدُورِ الـصِّـعَـادِ[٣]
أَشْـمَـتَ ٱلْـخُـلْـفُ بِـالـشُّـرَاةِ عِـدَاهَـا،
وَشَـفَـى رَبَّ فَـارِسٍ مِـنْ إيَـادِ[٤]
وَتَـوَلَّـى بَـنِـي الْـيَـزِيـدِيِّ بِـالْـبَـصْـ
ـرَةِ حَـتَّـى تَـمَـزَّقُـوا فـي الـبِـلَادِ[٥]

---

(١) و (٢) عدا: جاوز. بغى: طلب. يدعو الشاعر بالويل والثبور على بغاة الشرّ لكافور والأمير، فلينزل بهم ما يتمنون لهما من شرور وفساد آملاً ألّا يزول الفساد في ديار المفسدين. إنهما متلازمان تلازم الروح للجسد فاتّحادهما صون لهما واختلافهما ضعف لدولتهما، وهو يتمنّى لهما الصحة والعافية على الدوام.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. يقصد الشاعر بالأنابيب الأتباع. الطيش: الاضطراب. الصعاد، الواحدة صعدة: قناة الرمح. جاء الشاعر بمثل غايته الاتّحاد والاجتماع. واختلاف الحاشية ينتقل إلى القادة، فلكل منهم مؤيّد ومعارض، يستثير كل منهم صاحبه على خصمه فتكون دماء ودسائس، واتحاد الكلّ يقوّي الجسم تماماً كالرمح لا يصلح للطعن إلّا إذا اتّحدت عناصره والتحمت أجزاؤه.

(٤) أشمت: فرّح. الشراة: الخوارج. ربّ فارس: كسرى الفرس سابور ذو الأكتاف. وإياد إحدى قبائل العرب ذات الشوكة. يذكر الشاعر كلاً من كافور والأمير من أن اتحادهما يمنع الأعداء من الاستفراد بكلّ منهما على حدة، ويستشهد بالتاريخ فالشراة من الخوارج أنزل بهم المهلب بن أبي صفرة في العصر الأموي هزيمة نكراء كادت تقضي عليهم وهذا ما فعله أيضاً سابور كسرى الفرس بإياد تلك القبيلة القوية، فلم يستطع الإيقاع بهم إلّا بعدما زرع الشقاق بينهم فنكّل بهم وشرّدهم في آفاق الجزيرة بعيداً عن حدوده.

(٥) ويستشهد الشاعر بحدث تاريخي قريب العهد من كافور والأمير، وهما على علم به، =

وَمُـلُـوكـاً كـأمْـسِ فـي الْـقُـرْبِ مِـنَّـا
وَكَـطَـسْـمٍ وَأُخْـتِـهَـا فـي الْـبِـعَـادِ[١]
بِـكُـمَـا بِـتُّ عَـائِـذاً فِـيـكُـمَـا مِـنْـ
ـهُ وَمِـنْ كَـيْـدِ كُـلِّ بَـاغٍ وَعَـادِ[٢]
وَبِـلُـبَّـيْـكُـمَـا الأصِـيـلَـيْـنِ أنْ تَـفْـ
ـرُقَ صُـمُّ الـرِّمَـاحِ بَـيْـنَ الْـجِـيَـادِ[٣]
أوْ يَـكُـونَ الْـوَلِـيُّ أشْـقَـى عَـدُوٍّ
بِـالَّـذِي تَـذْخُـرَانِـهِ مِـنْ عَـتَـادِ[٤]
هَـلْ يَـسُـرَّنَّ بَـاقِـيـاً بَـعْـدَ مَـاضٍ
مَـا تَـقُـولُ الْـعُـدَاةُ فـي كُـلِّ نَـادِ[٥]

= لقد تمكّن بنو اليزيدي من طرد والي البصرة في خلافة المنصور ولكن الشر ذرّ قرنه بين الأخوة الثلاثة، فقتل الأخ الأكبر أخاه الأوسط فضعف شأنهم وانتهى بهم الأمر إلى الهلاك.

(١) ومن مآسي الخلاف في كل زمان شواهد حفرت ذكراها في التاريخ، ولقد تطاحنت جديس وطسم تلكما القبيلتان العربيتان فأبادتا بعضهما وأصبحتا أمثولة للتاريخ، وهكذا يفني الملوك بعضهم بعضاً في كل زمان ومكان.

(٢) ومن صدق النصح أن الشاعر يطلب منهما ترك الخلاف وعدم سماع من يبغي الشقاق بينهما، إنه يُخفي كيداً ويُضمر شراً لهما ليُوقع بهما معاً، فهو العدوّ فليحذرا مكره وليتجنّبا كيده.

(٣) اللبّ: العقل. الأصيلين: الجيدين. صمّ الرماح: الصلبة القاسية، الجياد: الخيول. يستصرخ الشاعر بما يميّزهما من عقول راسخة، فخلافهما شرخ لا يلتحم فينقسم الجيش ويقتتل الفريقان فيعمّ الخراب ويسهل على عدوّهما كسر شوكتهما والقضاء عليهما.

(٤) الولي: الصديق الحميم. العتاد: السلاح. يبيّن الشاعر سوء المصير في حال انسياقهما في طريق الخلاف، فالسلاح الذي اتخذاه للدفاع عن الأرض والعرض سيكون في تلك الحالة آلة تدمير، فيقتل الأخ أخاه والصديق صديقه، ذلك أن الصداقة في حال انقلابها إلى عداوة سوف تكون أشدّ بلاءً من العدوّ على عدوّه.

(٥) يذكر الشاعر ركني الخلاف بما سيذكر عنهما في منتديات الأعداء، إنهم يتفكّهون فرحين بأن القوم قد اقتتلوا وتفانوا، فرحين بما آل إليه أمرهما.

مَـنَـعَ الْـوُدُّ وَالـرِّعَـايَـةُ وَالـسُّـؤ
دُدُ أَنْ تَـبْـلُـغَـا إلـى الأَحْـقَـادِ[١]
وَحُـقُـوقٌ تُـرَقِّـقُ الْـقَـلْـبَ لِـلْـقَـلْـ
ـبِ وَلَـوْ ضُـمِّـنَـتْ قُـلـوبَ الْـجَـمَـادِ[٢]
فَـغَـدَا الـمُـلْـكُ بَـاهِـراً مَـنْ رَآهُ
شَـاكِـراً مَـا أَتَـيْـتُـمَـا مِـنْ سَـدَادِ[٣]
فـيـهِ أَيْـديـكُـمَـا عَـلَـى الـظَّـفَـرِ الْـحُـلْـ
ـوِ وأَيْـدِي قَـوْمٍ عَـلَـى الأَكْـبَـادِ[٤]
هٰـذِهِ دَوْلَـةُ الـمَـكَـارِمِ وَالـرَّأْ
فَـةِ وَالـمَـجْـدِ والـنَّـدَى والأَيَـادِي[٥]
كَـسَـفَـتْ سَـاعَـةً كَـمَـا تَـكْـسِـفُ الـشَّـمْـ
ـسُ، وَعَـادَتْ ونُـورُهَـا فـي ٱزْدِيَـادِ[٦]

---

(١) و (٢) الودّ: الصداقة. الرعاية: حفظ الودّ. السؤدد: السيادة. يذكر الشاعر ركني الخلاف أن ما يجمعهما أكثر ممَّا يفرّقهما؛ صداقة قديمة العهد ورعاية مربٍّ لصغير فقد أباه وحاميه فوجد في حضن وليه حناناً وحباً ورعاية فلا بدّ من تذكر ذلك، وكلاهما ينعمان بالسيادة في حال توافقهما وانسجامهما وفي حال حلّ بينهما الحقد فسوف يقضي كلّ منهما على الآخر ويعمّ الخراب إلى جانب الحقد. وهو يذكرهما بأن لكلّ منهما حقاً على الآخر وواجباً بحفظ المودة وصون الآخر من الهلاك المحقّق في حال الخلاف.

(٣) و (٤) يشكر الشاعر سعيهما بالحفاظ على الملك، فقد حلّ مكان الجفاء الودّ وصفت القلوب من الإحن والضغائن فعاد إلى الملك هالته مشعّة؛ إنه رأي سديد أن يتوقّف المرء عن الانجراف وراء غضبه، فالغضب يعمي القلب والبصيرة قبل البصر. ولقد نتج من ذلك الصلح تقارب القلوب ممّا أثار لوعة في قلوب من حاول إثارة الفتن بين ركني الخلاف.

(٥) و (٦) الندى: الكرم. الأيادي: العطاء. وبفرح يمدح الشاعر الدولة بركنيها، إنها دولة الكرم والمكارم، منها حسن الخلق والأفعال الحميدة، والتوادّ والرحمة والعطاء وبذل اليد، والأهمّ من كلّ ذلك، أنها دولة مجيدة عظيم مجدها بركنيها الكبيرين لقد مرّت =

يَـزْحَـمُ الـدَّهْـرَ رُكْـنُـهَـا عَـنْ أَذَاهَـا
بِـفَـتًـى مَـارِدٍ عَـلَـى الـمُـرَّادِ[١]
مُـتْـلِـفٍ مُـخْـلِـفٍ وَفِـيٍّ أَبِـيٍّ
عَـالِـمٍ حَـازِمٍ شُـجَـاعٍ جَـوَادِ[٢]
أَجْـفَـلَ الـنَّـاسُ عَـنْ طَـرِيـقِ أَبِـي الـمِـسْـ
ـكِ وَذَلَّـتْ لَـه رِقَـابُ الْـعِـبَـادِ[٣]
كَـيْـفَ لَا يُـتْـرَكُ الـطَـرِيـقُ لِـسَـيْـلٍ
ضَـيِّـقٍ عَـنْ أَتِـيِّـهِ كُـلُّ وَادِ[٤]

= غيمة عابرة حالت دون شمس الحقيقة، فإذا بالنور يسطع من جديد بقوّة تزداد بالطّراد لزوال أسباب الوحشة عن أفقها باتّفاق كافور والأمير.

(١) يمدح الشاعر كافوراً، فهو الركن المتين على عاتقيه يدوم مجد هذه الدولة، إنه الفتى القادر على إبعاد الأخطار عنها، فهو مارد جبار يخضع سائر المردة في سبيل الحفاظ عليها ودوامها. وهذا حقّ ما أشار إليه الشاعر، فلم تسقط مصر في أيدي الفاطميين إلّا بعد هلاكه.

(٢) يعدّد الشاعر فضائل كافور، إنه كريم يُتلف الأموال بتوزيعها على مستحقيها، وسرعان ما يُخلف غيرها بحروبه مع الأعداء، وهو عزيز النفس يأبى الضيم والذل على نفسه وبلده، يمتاز بعلم واسع في تدبير أمور الدولة وقيادتها في السلم والحرب، ومن صفاته الحزم في الأمور وعدم التردّد وذلك سبيل النجاح في السياسة، وليكون قائداً ناجحاً لا بدّ من شجاعة قد تصل إلى حدّ المغامرة، وفي ذلك يكون النصر، وهو لا يعدم الكرم في سائر أوقاته.

(٣) أجفل: خاف وأسرع في الهرب. ذلّت: خضعت. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه ذو مهابة بحيث لا يستطيع الناس تمالك أنفسهم، فيفرّون خشية منه واحتراماً، ولذا فقد تمكّن ذلك من قلوبهم فخضعوا له طائعين فملك رقابهم.

(٤) الأتي: السيل المنهمر من بعيد. يُنهي الشاعر قصيدته منوّهاً بفيض كرم الممدوح إنه سيل جارف فحيثما حل عمّ الخير، وطريقه يتّسع وينفسح ليشمل حتى الأودية فتستوعب خيراته.